الرّأي العام
السّلاح الصّفري للحرب النّاعمة

م.د راجي نصير

معهد العلمين للدراسات العليا

https://doi.org/10.61353/ma.0100393

تاريخ استلام البحث ٢٠٢٢/٥/١ تاريخ قبول البحث ٢٠٢٢/٦/١٥ تاريخ نشر البحث ٢٠٢٢/٩/٣٠

يتناول البحث موضوع تحوّل الرأي العام الى سلاح في الحرب الناعمة، أو حروب الجيل الرابع، ودور الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي في السيطرة على الرأي العام وتوجيهه والتحكم في قراراته، عن طريق مؤثرات نفسية وسلوكية مختلفة، من بينها الحرب النفسية، والدعاية المضادّة، وغسيل الدماغ، وتحت ضغوطات إعلامية مكثّفة وموجّهة ومدروسة، ومن ثمّ استغلاله لضرب الدول واسقاطها من الداخل عبر صراعات داخلية، واحتجاجات دموية، ودعم المجاميع الارهابية، يكون القاتل والمقتول فيها من أبناء البلد، والنتيجة ايصال الدولة إلى مستوى الدول الفاشلة كي يسهل السيطرة عليها. والمستفيد ممّا يحصل من " فوضى خلّاقة " كما أسمَتْها وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس، هي القوى المُحرّكة لها ودون كلفة تُذكر، في إعادة ترتيب أوضاع الدولة على وفق برامجهم ومشاريعهم ومخططاتهم .

The research deals with the issue of turning public opinion into a weapon in the soft war, or the fourth generation wars, and the role of the media and social media in controlling, directing public opinion through various psychological and behavioral influences, including psychological warfare, propaganda and counter-propaganda, and brainwashing. Under intense, targeted and deliberate media pressure, and then exploiting it to strike the state and topple it from within through internal conflicts and bloody protests and use terrorist groups, the killer and the murdered in it are citizens of the country, and the result is to bring the state to the level of failed states in order to facilitate control over them. And the beneficiary of what is happening from "creative chaos" as former US Secretary of State Condoleezza Rice called it, for the driving force behind her, at no cost, in rearranging the state's conditions according to their programs, projects and plans.

الكلمات المفتاحية: الرأي العام، الحرب الناعمة، حروب الجيل الرابع، الاعلام، مواقع التواصل الاجتماعي.

المقدمة

يحظى الرأي العام بأهمية كبيرة في الوقت الحاضر، خاصّة في الدول الديمقراطية، وقد ساعد انتشار قيم الديمقراطية وحرية الصحافة ووجود الأحزاب في تعميق أهمية الرأي العام، فهو المقياس عن مدى رضا الناس وتفاعلهم مع النظام السياسي أو الأحزاب أو حتى الفعاليات المجتمعية الأخرى، وهو أيضًا مؤشر رضا العامة عن النظام السياسي بشكل عام، لذلك طرقت الدول والحكومات، كل أبواب التكنلوجيا الحديثة للتأثير في الرأي العام وتطويعه، وصولًا إلى السيطرة عليه، وبعد الثورة المعلوماتية، وانتشار مواقع التواصل الاجتماعي، اتخذ التعامل مع الرأي العام أساليب أكثر عمقًا وتعقيدًا، خاصة بعد تبنّي الولايات المتحدة نظرية الفوضى الخلاقة بعد تفجيرات ١١ ايلول/ سبتمبر ٢٠٠١. ثمّ تطوّر الحال إلى استخدامه كسلاح فعال مع شعوب الدول الأخرى، خاصة مع دخول العالم حروب الجيل الرابع، التي تعدّ تحريك وتطويع الرأي العام أحد أسلحتها السحرية.

إنّ دخول العالم الجيل الرابع من الحروب، وهي حروب ناعمة يحرّكها الكبار، وتنفذها الجماهير، وتتحقق من داخل الدول المستهدفة، وعلى يد أبنائها، جعل استهداف الرأي العام يتم وفق أحدث الطرق النفسية والعلمية المدروسة بغية السيطرة عليه، وهكذا أصبح الرأي العام " سلاحًا" في إعادة ترتيب العالم، خاصة العالم الثالث، وفق متطلبات العولمة، التي تعني بنظر البعض، الوجه الآخر للهيمنة الأمريكية على العالم، مستدلين بأن ثورات الربيع العربي الأكثر عنفًا ودموية، حصلت في دول تصنفها أمريكا ضمن الدول المعادية أو المارقة، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث، الذي يحاول دراسة آليات صناعة الرأي العام والسيطرة عليه، ومن ثمّ استخدامه سلاحًا ناعمًا بديلًا لضرب الدول التي يُراد اضعافها من الداخل.

فرضية البحث:

يفترض البحث أنّ الرأي العام يتعرض إلى مؤثرات اعلامية ونفسية ودعاية مدروسة لإعادة تشكيله وفق متطلبات تناسب ظاهرة العولمة بكل أشكالها الثقافية والسياسية والاقتصادية والتكنلوجية والإعلامية. وإنّ وسائل الاعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي، تلعب دورًا كبيرًا في إعادة صياغة وتشكيل توجهات الرأي العام بالإفادة من المشاكل الاقتصادية والخدمية وانتشار البطالة والفساد المالي والإداري.

إشكالية البحث

يحاول البحث الإجابة على تساؤلات عدّة عن الأساليب التي تستخدم في إثارة الرأي العام؟ وما إذا كانت مقصودة أم هي نتاج طبيعي لثورة المعلومات وعولمة الاعلام؟ وهل يراد للرأي العام أن يكون سلاحًا بديلًا في الحرب الناعمة؟

منهج البحث

يستخدم البحث المنهج الوصفي التحليلي للرأي العام وكيفية صناعته وإثارته والتحكم به، والعوامل المؤثرة، والأدوات المستخدمة في ذلك.

هيكلية البحث

تتكون الدراسة من مبحثين، يتناول الأوّل الرأي العام من حيث التعريف والعوامل المؤثرة فيه خاصة الاعلام، أمّا المبحث الثاني فخصّص لحروب الجيل الرابع أو الحرب الصفرية، وعلاقتها بالفوضى الخلاقة وثورات الشعوب، وأبرز الأساليب والمؤثرات النفسية المستخدمة فيها.

المبحث الأول: الاعلام والتواصل الاجتماعي وصناعة الرأي العام

المطلب الأول: تعريف الرأي العام والعوامل المؤثرة فيه

أولاً: تعريف الرأي العام

يُنظر إلى الرأي العام من زوايا متعددة، سياسية واجتماعية واعلامية وغيرها، ولذلك كانت للرأي العام تعريفات عديدة، بحسب زاوية تناوله. فقد عرّفه معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية بأنّه : " وجهات النظر والشعور السائد بين جمهور معين، في وقت معين، إزاء موقف أو مشكلة من المشكلات"[١]. فيما عرّفه آخرون بأنّه :" عبارة عن آراء جمهور معين، حول موضوع معين، قد يكون فكرة أو مشكلة أو قضية أو حدث يثير اهتمام هذا الجمهور ويؤثر فيه، بحيث يُقسّمه إلى مؤيد ومعارض ومحايد، ويدفع هذا الجمهور للتعبير عن وجهة نظره حول هذا الموضوع، والذي يؤثر على صانع القرار إن كان محليًا أو اقليميًا أو دوليًا".[٢] فهو وجهات نظر وقناعات ومواقف تتشكل نتيجة تفاعل جمهور معين، في زمان ومكان معينين مع قضية معينة كما يقول وليم البيج (Wellim Elbj) في تعريفه الرأي العام بأنّه:" الناتج عن تفاعل الأشخاص في أي شكل من أشكال الجماعة، أو هو موضوع معين يكون محل مناقشة في جماعة عامة.[٣]

اشترط مختار التهامي الوعي في تكوين الرأي العام حيث عرّفه بالقول إنّ الرأي العام هو " الرأي السائد بين أغلبية الشعب الواعية في مدّة معينة، بالنسبة لقضية أو أكثر يحتدم فيها الجدل والنقاش، وتمس مصالح هذه الأغلبية أو قيمها الإنسانية الأساسية مسًّا مباشرًا"، غير أنّ تهامي يشترط "الوعي" في تكوين الرأي العام. وهو ما رفضه وولتر شيبرد (Walter J. Shepard) في كتابه (الرأي العام)، معتبرًا أنّ هذا ليس من الحكمة، فصحيح أنّ الطبقات المتعلمة تسهم بحصة أكبر في معظم الآراء العامة مقارنة بالأشخاص غير المتعلمين، لكنّها لا تحتكر الرأي العام، فهناك في الواقع جمهور يتألف من رجال غير متعلمين ، إلى جانب آخرين لديهم درجة عالية من التعليم.[٤]

أمّا العالم الأميركي فلويد البرت Floyd. H. Allport – المتخصص في الإعلام– فقد عرّف الرأي العام بصورة أكثر تفصيلا حيث قال إنّ الرأي العام: هو تعبير جمع كبير من الأفراد عن آرائهم في موقف معين، أمّا من تلقاء انفسهم، أو بناء على دعوة توجه إليهم، تعبيرًا مؤيدًا أو معارضًا لمسألة معينة، أو شخص معين، أو اقتراح ذي أهمية واسعة، بحيث تكون نسبة المؤيدين أو المعارضين ودرجة اقتناعهم وثباتهم واستمرارهم كافية لاحتمال ممارسة التأثير على اتخاذ اجراء معين، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، تجاه الموضوع الذي هم بصدده.(٥) والتعريف يشير بوضوح إلى أنّ بعض قناعات الرأي العام تتكون من تلقاء أنفسهم، والبعض الآخر بناء على دعوة توجه إليهم، وهنا تكمن خطورة ارباك الرأي العام وتوجيهه لأهداف معينة من أطراف تمتلك المعلومة ,والتقنية, والخبرة, والنية المسبقة.

ثانيا: العوامل المؤثرة في الرأي العام

هناك عوامل كثيرة تُسهم في تشكيل الرأي العام، وفي مقدّمتها العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية والثقافية المتوارثة، ومستوى التربية والتعليم في المجتمع، والتنشئة الأسرية، وعامل الدين والزعامات الدينية في المجتمع، والحوادث والأزمات — مثل الحروب والزلازل والمجاعة والحصار وغيرها– والعوامل النفسية التي تتحكم بالسلوك العام للشخصية في كل مجتمع. كما تلعب طبيعة النظام السياسي والحريات الشخصية المتاحة، وحرية الاعلام والتعبير عن الرأي، وطبيعة الأوضاع الدولية السائدة، دورًا كبيرًا في صياغة الرأي العام، والتأثير فيه، وتحديد اتجاهاته ومدياته. وهذه العوامل تعمل بشكل متكامل مع بعضها البعض، مع تباين في التأثير من دولة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر.(٦)

المطلب الثاني: الرأي العام والاعلام والتواصل الاجتماعي

أولًا: الاعلام وإدارة الرأي العام

أدّى التطور الكبير في تكنلوجيا الاتصال إلى زيادة الاهتمام بالرأي العام، وذلك لأنّ التطورات التكنلوجية الهائلة قد وحّدت بين الناس في مختلف أنحاء العالم، وأصبح ما يحدث في مكان ما يتردد صداه في كل مكان وفي اللحظة نفسها ، أي أنّها زادت من حجم الجماهير التي تستمع لنفس البرامج ولنفس المتحدثين، بل وتقرأ نفس القصص والمجلات والصحف بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى اللغة المحلية، وزادت بذلك من قدرة القائمين على وسائل الاتصال في تشكيل آراء الناس وتطويع اتجاهاتهم.(٧)

تاريخياً أثبتت وسائل الإعلام كفاءة عالية في تشكيل الرأي العام. وقد استخدمت وسائل الإعلام والدعاية، في خلق أو تدمير الحركات الاجتماعية، وتبرير الحروب، وتخفيف الأزمات المالية ، والتحريض ضد بعض التيارات الإيديولوجية المخالفة، وحتى جعل الظاهرة الإعلامية تبدو وكأنّها منتج للحقيقة بنظر العقل الجمعي.(8)

وتقوم وسائل الاعلام بدور مهم في تكوين الرأي العام وفي ضوء ما تحمله من مضمون، وفقا لمنهجها وأهدافها، لذلك أخذت الدول على اختلاف أيديولوجياتها ونظمها السياسية، بتنمية وتعزيز أجهزة الاعلام والسيطرة عليها.[٩] ومن يتحكم في وسائل الإعلام سيتمكن من توجيه الرأي العام بما يتماشى مع أفكاره.[١٠] وقد قام المفكر الامريكي نعوم تشومسكي ، بتجميع قائمة من عشر استراتيجيات أكثر شيوعًا وفعالية تلجأ إليها الأجندات "المخفية" لتأسيس التلاعب بالمجتمعات من خلال وسائل الإعلام. ومن بين هذه التكتيكات: تشجيع الغباء ، أو تعزيز الشعور بالذنب ، أو الإلهاء ، أو إنشاء مشاكل مصطنعة ومن ثم حلّها بطريقة سحرية، والتركيز على الجوانب العاطفية بدل العقلية، وتقوية اللوم للذات من المستهدف، والتعامل مع الجمهور وكأنهم اطفال.[١١]

وتقوم سيكولوجية صناعة الرأي العام على عدد من المبادئ والأوليات، وهي تتنوع أحيانًا بين مناهج قصدية موضوعة ومرتبة، من قبل جهات ومؤسسات متخصصة، وبين أنواع أخرى تنشأ نتيجة التحرك الفطري الغريزي للوعي المجتمعي، في تعاطيه مع ما تمر به من أحداث. لذا ينظر إلى ظاهرة الرأي العام على أنّها ظاهرة معقدة يصعب تحليلها إلى أجزائها تحليلًا بسيطًا، بل تتداخل مجموعة من العوامل والمؤثرات المختلفة في تكوينها، سيكولوجية وسياسية وثقافية واجتماعية، تتكون كلّها من مجموعة من القيم والمعايير التي تحكم إدراك الفرد وسلوكياته. ويعد المدخل السيكولوجي من أهم مداخل تكوين الرأي العام, وتقعيد مدخلاته المعرفية والتحليلية في بنية الوعي والتفكير المجتمعي.[١٢]

وأصبحت هذه الدول كثيرًا ما تتلاعب بقضايا الشعوب ومآسيها لتحقيق أغراض جيوسياسية واقتصادية وعسكرية، باستعمال كلّ الطرائق والوسائل الممكنة والمتاحة للتلاعب بعقول الناس وضمائرهم، لا سيما توظيف الضخ الاعلامي الموجه، وعمليات غسيل الدماغ، والتي ذكرها نعوم تشومسكي في كتابه السيطرة على الاعلام، وذكرها روبرت شيلر في كتابه المتلاعبون بالعقول، حيث يتمّ استعمال عدة تقنيات للسيطرة على الوعي الجماهيري، والتحكم به، وتوجيهه لخدمة أهدافها المبطنة وغير المصرّح بها.[١٣]

وتؤثر وسائل الاعلام في التكوين المعرفي للأفراد من خلال التعرض الطويل لوسائل الاعلام كمصدر موثوق للمعلومات، فتغير من أسلوب الفرد وطريقة تفكيره وقناعاته، لأنّ القناعات حصيلة المعرفة المكتسبة. ويقوم الأفراد بتغيير مواقفهم من قضية ما بناءً على المعلومات التي توفرها وسائل الاعلام، ومن خلال هذه الرسائل الاعلامية يبقى الاعلام العامل الرئيس في عملية تغيير الموقف والاتجاه، سواء على مستوى الأشخاص أو القضايا أو على مستوى القيم والسلوك.[١٤]

ولاشك أنّ التغيير لا يحدث بشكل سريع ومفاجئ، إنّما نتيجة التأثيرات التراكمية لما تبثه وسائل الاعلام، خاصة عندما تكون هناك شبكات من وسائل الاعلام المختلفة التي تروج لنفس الأفكار والمفاهيم والأخبار

المزيفة في كثير من الأحيان، وقد تكون الأخبار حقيقية لكنّها محرّفة أو مُجتزأة أو منقوصة، ولا تكتفي وسائل الاعلام بتقديم الأخبار فقط، إنّما تقدم التحليلات والمعلومات والتفاصيل الثانوية، وقد تستخدم هذه التحليلات والمعلومات في تسريب مؤثراتها النفسية والدعائية للتأثير في قناعات المتلقين، ومن ثمّ في توجهات الرأي العام بما ينسجم وتوجهاتها وخططها. فقد يكون نقل الخبر صحيحًا لكن تحليله غير صحيح، أو يتم التلاعب بخلفية الخبر لتوجيه الاتهام إلى طرف معين، أو تبرئة طرف، و من ثمّ تجييش الرأي العام على الطرف المستهدف من قبل مالكي وسائل الاعلام هذه.

ومن بين أساليب الهيمنة على الرأي العام، اضعاف ثقة المستهدف بنفسه وقدراته، وتحويل التمرّد إلى شعور ذاتي بالذنب من خلال جعل كل فرد يشعر بأنه السبب في تعاسته وسوء حظه، وذلك بسبب قصور تفكيره وذكائه وضعف قدراته، وقلة الجهود المبذولة من جانبه، وهكذا ينغمس في الشعور بالتدني الذاتي الذي يؤدي لحالة من الاكتئاب تحبط أي محاولة للفعل لديه.[١٥] ومن ثمّ يستسلم للدعاية التي تروج لها وسائل الاعلام، وقد يتماهى معها لا شعوريًا، وينقاد لها بشكل كبير.

كما أنّ تسويق بعض الأحلام الورديّة الزائفة يعدّ من أساليب الهيمنة على الرأي العام، خاصة في الدول الخارجة توًا، أو التواقة إلى الخروج من الدكتاتوريات السياسية، والتي تفتقد إلى المنجز المقنع للجماهير، من قبيل الديموقراطية وحرية التعبير عن الرأي، ففي مجتمع تُفرض عليه موضوعات القضايا المهمّة التي يجب أن يُثار حولها النقاش، تكون إثارة النقاش وحدها ليست هي الشاهد الذي يثبت وجود حالةٍ ديموقراطية صحية؛ لأنّ المجال العام تتم صناعته عبر المعلومات التي تبنّتها وسائل الاعلام من منظورات محددة بالسياسات العامة للمؤسسة الإعلامية.[١٦] وهكذا تصبح وسائل الاعلام، خاصة الكبرى منها في العالم، هي من يُحرّك الشارع وفق رؤيتها وأجنداتها الخاصّة، فتقوم بتركيز الضوء على قضايا صغيرة وغير مهمّة، وتبعد الأضواء عن قضايا مفصلية ومهمّة، حسب مصالحها وأجنداتها، و بالتالي هي من تصنع تفضيلات الرأي العام وتوجهاته.

وإلى ذلك يشير المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي في كتابه " سلطة الاعلام" وفي حديثه عن الديمقراطية التي يتم تسويقها عبر وسائل الاعلام، حيث يقول: " هنالك مفهومان مختلفان للديمقراطية. أولها مفهوم ديمقراطية المجتمع، وتعني أنّ المجتمع هو الذي يمتلك فيه الجمهور الوسائل للمشاركة بطريقة هادفة في إدارة شؤونهم الخاصة وتكون فيه وسائل الإعلام مفتوحة وحرّة. والمفهوم البديل للديمقراطية يعني أنّه يجب منع الجمهور من إدارة شؤونهم الخاصة، ووسائل الإعلام يجب أن يتم التحكم فيها بشكل ضيق وصارم. قد يبدو هذا وكأنّه تصوّر غريب للديمقراطية ، ولكن من المهم أن نفهم أنّ هذا في الحقيقة هو المفهوم السائد للديمقراطية منذ مدة طويلة ، ليس فقط في الممارسة ، ولكن حتى نظريًا، والتضليل الاعلامي يدخل ضمن هذا السياق".[17] وقد أدّت وسائل الاعلام أدوارًا كبيرة في هذا المجال، باستخدام كلّ الإمكانات والتقنيات الفنيّة، والخبرات، لتوجيه

الجمهور حيث تريد بشكل لا شعوري، من خلال الضخ المكثف والهائل للأخبار والصور والتحليلات، والتي تصبّ جميعها باتجاه ما يريد الاعلام الوصول إليه من نتائجها، يمكن اجمالها في الهيمنة على الرأي العام وتوجيهه حيثما تريد.

وفي كتابه " من يمتلك العالم" يعطي تشومسكي أمثلة عملية على الديمقراطية الزائفة التي تحاول الدول المتحكمة بالإعلام العالمي تسويقها، عبر ما يسمّى بثورات الرّبيع العربي، وكيف تفرض على دول بعينها بالاحتلال وقوة السلاح، وتبعد عن الدول الغنية والنفطية، حيث يقول" حتى الآن تمّ احتواء خطر الربيع العربي بشكل حسن إلى حدٍّ ما في الدكتاتوريات النفطية وهي الأهم بالنسبة للغرب. كل محاولة للانضمام الى الربيع العربي سحقت بالقوة، العربية السعودية كانت صارمة جدا، ولهذا الامر على ما يرام، نحن نجحنا في ضمان ان خطر الديمقراطية سيتحطم في معظم المناطق المهمة"[١٨]. فالربيع العربي لم يسمح له بالاقتراب من الدول النفطية في الخليج، لأنّ النفط مطلوب ومهم استمرار تدفقه غربيًا، لكن سمح للربيع العربي بضرب دول عربية أخرى فقيرة، مثل تونس وسوريا ومصر، التي أوردها تشومسكي أنموذجًا حيث قال: " مصر حالة ممتعة، إنّها بلد غير منتج للبترول، إنّها منتجة صغيرة، في مصر اتبعت الولايات المتحدة أسلوبًا عمليًاتيًا قياسيًا، هناك إجراء قياسي، حينما يقع أحد طغاتك المفضّلين في ورطة، أولا أنت تدعمه مادام ذلك ممكنًا، لكن إن أصبح ذلك مستحيلًا حقيقة قل: انقلب الجيش ضده وعندها اطرده إلى المرعى، واجعل الطبقة المثقفة تصدر بيانات رنانة عن حبّك للديمقراطية، ثم حاول احياء النظام القديم بأقصى ما يمكن"[١٩]. وكان في هذا الكلام وصف تفصيلي لما جرى منذ سقوط نظام حسني مبارك، حتى وصول عبد الفتاح السيسي إلى السلطة. ويضيف معلقًا " حسنًا، المستقبل غامض ومشكوك فيه، لكن خطر الديمقراطية تم احتواءه حتى الآن" [٢٠] فالديمقراطية التي يسوقها الغرب إعلاميًا على أنّها انعتاق وتحرر، هي في حقيقتها مخططة ومصنوعة لأغراض تخدم مصالحهم بالدرجة الأساس، نعم الجماهير تتحرك عفويًا وتلقائيًا أحيانًا، لكن الحراك في نهايته يتم استغلاله إعلاميًا، وبطرق مدروسة ومحكمة.

ثانيا: الاتصال والتواصل

الاتصال هو عكس الانقطاع، ويُعرّف بأنّه الاجتماع، والالتقاء، نقل المعلومات أو الرسائل من شخصٍ إلى آخر، بهدف التأثير في سلوكه، ويتمّ ذلك عن طريق استخدام اللغة، أو المعاني، أو الإشارات، أو المفاهيم.

أمّا التواصل فهو عملية إرسال المعلومات، واستقبالها، وهو يعبّر عن عملية تبادل الآراء، والأفكار، والمشاعر، والمعلومات عبر الوسائط المتعددة، سواءً كان ذلك التبادل بين الجماعات، أو بين الأفراد.

يقتصر مفهوم الاتصال على وجود طرفٍ واحد فعّال في عملية الاتصال مثل مشاهدة التلفاز والبرامج المختلفة وهي عملية ليست تشاركية، أمّا التواصل فهو عمليّة اتصالٍ مشتركةٍ ذهاباً وإياباً، بمعنى وجود رسائل

متبادلة بين طرفي التواصل، فالاثنان يمارسان دور المرسل والمستقبل، وليس كما الاتصال طرف مرسل وآخر مستقبل.

في عام ١٩٦٦ نشر عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو كتابًا حمل عنوان " التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول" طرح فيه فكرة امتلاك المعلومات، في مجتمع يوصف بأنه مجتمع المعلومات؛ فمن يمتلك المعلومات هو الذي يصنع طريقة تقديمها، وتكوين الآراء حولها؛ وهذا التقديم لفكرة التواصل بين المجتمع والتلفزيون، يفترض كون المجتمع طرفًا سلبيًا، أو شبه سلبي، في عملية التواصل هذه؛ إنّه مجرد مستقبل يتحول إلى مستهلك لموضوعات التلفزيون وقضاياه. حينها، كانت القنوات التلفزيونية وسيلة بث المعلومات في المجتمع، ومن ثمّ فإنّ مالكيها هم مالكو ثروة المجتمع المعلوماتية، وهم الذين يقررون ما هي طبيعة المعلومات التي يجب أن تشكِّل الرأي العام، وفقًا لأغراض متعددة: اقتصادية أو سياسية أو أيديولوجية.(٢١)

وبالفعل لعبت وسائل الاعلام الكبرى ، دورًا كبيرًا في صناعة وتوجيه اهتمامات الراي العام في العالم، وتسليط الضوء على بعض القضايا التي يراد تسليط الضوء عليها، والتعتيم على قضايا أخرى مهما كانت أهميتها، وازداد الأمر سوءًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق وتفرد الولايات المتحدة الامريكية بزعامة العالم والقطبية الاحادية، وأصبحت العولمة لا تعني العالمية أو التشاركية كما يفترض، إنّما تعني هيمنة الرؤية والإرادة الامريكية على العالم، وهكذا قامت بعض وكالات الأنباء العالمية والمؤسسات الاعلامية الكبرى في الولايات المتحدة بفرض الرؤية الأمريكية على الأحداث العالمية بما فيها القضايا التي تمس مصير الشعوب ومستقبلها، وتحول موضوع الحرية وحقوق الإنسان الذي ارتبط بالعولمة بشكل كبير، سلاحًا لمحاربة الانظمة والشعوب التي ترفض الهيمنة الامريكية، أو التي لا تقبل الخضوع للإرادة الامريكية.

ثالثا: مواقع التواصل الاجتماعي

مثل ظهور مواقع التواصل الاجتماعي انتقاله مهمة وكبيرة في مجال الديمقراطية وانتقال المعلومات وحرية التعبير للجميع بعيدًا عن سيطرة السلطات الحكومية أو حتى مقص حارس البوابة (رئيس التحرير) في وسائل الاعلام التقليدية. وانتقاله من الاتصال الأحادي الجانب إلى التواصل المتعدد الأطراف. حتى أنّ التلفزيون والصحف والمجلات باتت تصنف ضمن وسائل الاعلام القديمة أو التقليدية، وظهر ما بات يُعرف بالإعلام الجديد أو الاعلام الرقمي، ما اضطر كبريات الصحف والمؤسسات الاعلامية أن تستثمر في الاعلام الرقمي الجديد لضمان التواصل مع جمهورها الذي بات يتناقص باستمرار.

إنّ شبكات التواصل الاجتماعي أتاحت ميزة جعلتها في موقع الصدارة لدى الجمهور، وهي ميزة التفاعل الآني واللحظي مع ما ينشر، بخلاف الإعلام التقليدي السمعي والبصري، ونستطيع القول إنّها غدت بمثابة

مطبخ جديد لصناعة وتوليد رأي عام جديد في القضايا والمواضيع، وهي أداة فاعلة لا يمكن إغفالها، ولاسيما أنّها تشهد مزيدًا من الإقبال، والداخلين الجدد إليها من الجمهور بمختلف فئاته وأعماره ومستوياته.(٢٢)

وما يميّز وسائل التواصل الاجتماعي سهولة التعامل معها بصرف النظر عن المستوى التعليمي والثقافي، لأنّها تتضمن أساليب عدة، مقروءة ومسموعة ومرئية، ومن لا يجيد القراءة والكتابة بإمكانه استخدام الرسائل الصوتية أو المقاطع الفيديوية، إضافة إلى كونها سهلة الحمل، وتعمل على مدار الساعة، في محل العمل، وفي البيت، وفي الشارع، وفي السيارة، وفي كل مكان.

ربما، ليس بإمكاننا إنكار أنّ وسائل التواصل الاجتماعي ساهمت إلى حدٍّ كبير في عملية دمقرطة التجارب الفردية الاجتماعية، والسياسية أحيانًا، ولكن – وفي جانب آخر– فقد وقع الفرد مجددًا في شرك الكثير من الاشتراطات الجديدة التي تلعب في منطقة خلفية سماها بورديو بـ ''العنف الرمزي''، إذ مارست وسائل التواصل الاجتماعي عنفًا رمزيًّا من خلال شخصيات ''المؤثرين'' الذين لا يملكون أكثر من عدادٍ مرتفع من المتابعين الذين لا نعلم عن ''حقيقة'' حساباتهم شيئًا، ومن هنا، فإن الفضاء الديموقراطي ولَّد في ذات اللحظة بيئةً خصبةً لممارسة العنف ضد من لا يملكون القدرة على ''الوصول'' لأنهم لا يملكون فنَّ ''الدعاية'' لأنفسهم.(٢٣)

إنّ أحد أهم الاستراتيجيات المستخدمة في صناعة الرأي العام عبر شبكات التواصل الاجتماعي هو التركيز على معرفة حاجة الفئات المستهدفة وكيفية بلورة المنتج والفكرة، وصياغته لتقديمه للجمهور بطريقة تجعلهم يتفاعلون معه ويقدمون آراءهم فيه، بحيث تكون مواقع التواصل ورش عمل مفتوحة لصناعة الرأي(٢٤). وما ساعد على ذلك، وجود خاصية التفاعل وبيان الراي والمشاعر بشكل مباشر من المتلقي، ما يسهل من تقدير التغذية العكسية وردود أفعال الاخرين ودرجة تفاعلهم. وربما تكون هذه الميزة هي الابرز في استخدام السوشيال ميديا كسلاح فعّال في حروب الجيل الرابع، أو الحرب الصفرية، التي تُدار اعلاميًا بشكل كامل وعن بعد، دون أن يخسر المتحكمون بها أي شيء مادي أو معنوي.

لقد أصبحت وسائل الاتصال والإعلام الرقمي من ضرورات الحياة، إذ تؤدي وسائل الإعلام دورًا بالغ الأهمية والخطورة في تشكيل الرأي العام، وفي تعبئة الجماعات، وحشدها حول أفكار وآراء واتجاهات معينة، مهما كانت هذه الجماهير متباعدة جغرافيًا، أو غير متجانسة ديموغرافيا، وزادت التطورات التكنولوجية الهائلة قدرة وسائل الاتصال الرقمي في تحقيق المزيد من التأثير في الجماهير، وتوجيهها نحو آراء وأفكار معينة. وأسهم الانتشار الحر للمعلومات من خلال شبكات التواصل الاجتماعي في خلق إمكانية كبيرة للتحرك على أساس معرفة واسعة ودقيقة بالأحداث السياسية، ومن ثم التأثير في تصورات المواطن للسياسة.(٢٥)

إنّ حرية استخدام مواقع التواصل الاجتماعي وتوفر المعلومات بكمية كبيرة، يرفع بالتأكيد من وعي المواطن بالقضايا العامة بما فيها القضايا السياسية، وبالتالي يزيد من مشاركته في الشأن السياسي العام، وفي صناعة السياسات العامة، خاصة وأنّ الاتصال الرقمي اليوم جعل من الممكن مشاركة المعلومات بشكل لم يسبق له مثيل، بعد غياب الحدود التقليدية وقيود المسافة. وبات بالإمكان استخدام التكنولوجيا لتغيير الرأي العام ، والتأثير في نهاية المطاف على العالم الحقيقي.[٢٦] ليس من داخل الدولة فقط، بل من خارج الدولة ومن أي مكان في العالم، فالتطور الهائل في تكنلوجيا المعلومات والانترنت، لم يتوقف عند حدود تحويل العالم الى قرية صغيرة، بل حوله الى موبايل يحمل باليد ويربطك بكل العالم.

المبحث الثاني: حروب الجيل الرابع.

المطلب الأول: حروب جديدة سلاحها الفوضى

أولًا: حروب صفرية بالوكالة

ظهرت حرب الجيل الرابع (GW٤) في أواخر الثمانينيّات ، ولكنها أصبحت شائعة بعد الحرب في العراق والهجمات الإرهابية في جميع أنحاء العالم.[٢٧]

في عام ١٩٨٩ حددت مجموعة من الباحثين ما أسموه "حرب الجيل الرابع" يميزونها من سابقاتها بعدد من الطرق: فهي لامركزية من حيث القيادة واللوجستيات؛ حيث لم يعد القتال الجسدي هو النشاط الأساسي، وهدف القوات المتمردة؛ استخدام الإرهاب والدعاية عناصر أساسية لكيفية شنهم الحرب. ينشأ هذا النوع من الحرب حيث الاختلافات بين الخصوم يتم تسليط الضوء عليها من قبل الجهات الفاعلة من أجل شن الحرب، بالنسبة لهذا النوع من الحرب، فإن الكلمة هي أقوى كل شيء، إن لم يكن أكثر من السيف.[٢٨]

في البداية أطلقوا عليها اسم الحرب الجديدة، ثم باتت تسمى حروب الجيل الرابع. وأول من أطلق هذا التعريف في محاضرة علنية في معهد الأمن القومي الاسرائيلي هو البروفسور الأمريكي ماكس مايوراينك، عرف فيها تلك الحرب الجديدة بأنّها: حرب بالإكراه، وافشال للدولة، وزعزعة استقرار الدولة، ثم فرض واقع جديد يراعي المصالح الامريكية.[٢٩]

وقد وضع ماكس مايوراينك نقاط أساسية للحرب الجديدة التي سرعان ما حملت اسم حرب الجيل الرابع، وهي:[٣٠]

١- دعم الارهاب

٢- خلق قاعدة ارهابية غير وطنية أو متعددة الجنسيات.

٣- حرب نفسية متطورة للغاية، من خلال الاعلام والحرب النفسية.
٤- استخدام كل أنواع الضغوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.
٥- استخدام تكتيكات حروب العصابات والتمرد.

يقول المفكّر الباكستاني الدكتور محمد إقبال، إنّ أجيال الحروب أربعة ،وهي :الجيل الأول : القتال بالسلاح الأبيض (فرسان)، الجيل الثاني: الأسلحة النارية وفيها قال كولت" مصمم المسدس الأمريكي ماركة كولت": الآن يتساوى الشجاع والجبان، الجيل الثالث: السلاح النووي، والجيل الرابع :أن تترك عدوك يحارب نفسه بنفسه، باستخدام الطابور الخامس، وباستثمار الصراعات الفكرية والدينية والمناطقية وتأجيجها.[31] والقليلون منا فقط يعرفون بأن النسخة الرابعة الأخيرة منها، وهي حروب الجيل الرابع، أو الحرب الإعلامية والنفسية، أشد بأسًا وخطورة من نسخها التقليدية، فهي حرب من دون وضع أيد على الزناد وإطلاق رصاص ودوّي مدافع، لكنّها أشدّ وقعًا وتأثيرًا.[٣٢]

أمّا المفكر الفرنسي روجيه غارودي فيصف الجيل الرابع من الحروب بالحرب الصفرية، وانها تهدف الى خلق الدولة الفاشلة لتسهيل السيطرة عليها، حيث يقول: الآن يقاتل الغرب بالتكلفة الصفرية، العدو يقتل نفسه، العدو يدفع ثمن السلاح، العدو يطلبنا للتدخل فلا نقبل، التكلفة الصفرية تعني أن الغرب لا يخسر شيئا في الحروب، حروب الجيل الرابع تعتمد على خلق دولة فاشلة يسهل السيطرة عليها وإخضاعها لأي قرار تريده دولة الاحتلال من تلك الدولة الفاشلة .[٣٣]

فحروب الجيل الرابع، هي حروب تجري داخل الدولة المستهدفة، وبشعارات ديمقراطية، والمتحاربون من الدولة نفسها ، والضحايا من الدولة نفسها أيضًا ، والمحرك ربّما يكون على بعد الآف الكيلومترات، يدير ما يجري من بعد، وهو الرابح في نهاية المطاف لأنّه سيعيد تشكيل الدولة والرأي العام فيها وفق رؤيته ومصالحه. فحروب الجيل الرابع عبارة عن شكل متطور من التمرد، يتم اشعاله في دول الخصوم المستهدفة، يستخدم كل ما هو متاح من القوة في الشبكات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، لإقناع صناع قرار الخصم أن أهدافهم الاستراتيجية إما غير قابلة للتحقيق أو مكلفة للغاية.[٣٤] ويتم ذلك من خلال إثارة الاحتجاجات أو الثورات الشعبية ضد الأنظمة الحاكمة، أو إثارة الجماهير ضد بعضها البعض، مع توفير غطاء دولي، عبر قرارات تصدر أحيانا من منظمات دولية، سياسية واقتصادية، تدعم تنفيذ أو تحقيق أهداف من يقفون وراء اشعال هذه الحروب، التي تصنّف ضمن حروب الجيل الرابع.

ثانيا: الفوضى الخلاقة.. وحروب الجيل الرابع

تحريك الجماهير ضد حكوماتها، لإسقاط الحكومات، أو تغيير شكل الأنظمة السياسية، والسياسات التي تتبعها، هي أبرز أنواع حروب الجيل الرابع، بل أكثرها فعالية، خاصة في دول العالم الثالث، وثورات الربيع

العربي خير مثال على ذلك. ويصار أحيانا إيصال الاحتجاج أو الغضب الشعبي الى حالة الانفعال الهستيري الذي يخرج الإنسان من سيطرة العقل، الى هيمنة العاطفة، وكان من نتائج هذا الانفعال الهستيري في بعض احتجاجات ما يسمّى بالربيع العربي، ارتفاع حدة الصدامات، وارتفاع عدد الضحايا، وحالة من الاقدام لدى الشباب ليس لها مثيل، واصرار على الوصول إلى الهدف المنشود رغم كثرة الضحايا والإصابات. وتم ضرب كل مؤسسات الدولة، وتعطيل الدوام، وقطع الطرقات، في نموذج للفوضى، التي سمّتها أمريكا بالخلاقة، لإعادة هيكلة الدول المستهدفة، وتحقيق ازاحة شاملة في بنيتها السياسية والاخلاقية والثقافية.

التلاعب بالعواطف، أسلوب يستخدم في مثل هذه الأجواء الملتهبة لنشر أفكار يصعب تقبلها من خلال الخطاب المنطقي الهادئ، مثل بث روح الاستعلاء والتعصب لدى بعض الشعوب أو المجموعات القومية أو العرقية عن طريق تضخيم إنجازاتها التاريخية، بهدف بث الكراهية والاحتقار تجاه شعوب أخرى، أو أقليات عرقية، أو مجموعات فكرية، وقد يتضمن ذلك إثارة الجماهير للإقدام على أعمال عدوانية ضدها.[٣٥]

ومن بين أساليب ادامة الفوضى الخلاقة، زعزعة الاستقرار، والتشكيك في الجيش والشرطة والقيادات السياسية، وضرب الاقتصاد بضرب السياحة، ونشر الشائعات، واستخدام التكنولوجيا في التنظيمات الإرهابية.[٣٦] وغالبا ما يُصار في كثير من الاحيان الى تضخيم نتائج الاحتجاجات لاستثارة الجماهير ضد السلطة وأجهزتها الامنية، أو تحريض قومية على قومية، أو مكوّن على مكوّن، كما في الحروب القومية والاثنية والطائفية، وقد وفر الانترنت إمكانية نقل الصور والفيديوهات بسهولة وسرعة فائقة، مثلما وفر إمكانية التلاعب بها، أو تصوير بعض المشاهد التمثيلية وتوزيعها على أنّها " جرائم " حقيقية، من أجل استثارة ردود افعال توفر في النهاية دعما ماديًا أو بشريًا أو اعلاميًا للجهة صاحبة الدعاية.

ولأنّ حروب الجيل الرابع، هي حروب من دون مدافع، لكن تأثيرها أشد وقعًا وخطورة، لأنّها عكست هدف تدمير القوة العسكرية بتدمير القوة المدنية، ومن ثمّ فهي لا تضرب الحدود العسكرية الخارجية، ولا تستخدم السلاح تقليديًا كان أم نوويا، إنّما تضرب الداخل بأسلحة نفسية غير مرئية، وباستخدام وسائل الاعلام التقليدية والإلكترونية الحديثة، لتحقيق هدف التدمير النفسي، وخلق الفوضى المجتمعية، وصولًا إلى احداث التغيير وفق مقاسات ورغبات القائمين على الحرب النفسية.

ولتحقيق أهداف الحروب الصفرية، لابد لها من محو العادات والتقاليد والمعتقدات لدى الشعوب، وخلخلة الوضع الداخلي فيها على نظرية " الفوضى الخلاقة" وصولًا إلى انهيار الدولة وتحولها إلى دولة فاشلة. وهذا الانهيار هو أحد الأهداف المطلوبة، للوصول إلى الخطوة التالية وهي الاستسلام لإملاءات القائم بالعمل النفسي، فالمتلقي يصبح خاضعًا للعقل الجمعي الذي يحاصره حتى فيما يقول ويفعل، حتى على مواقع التواصل الاجتماعي يخشى البوح بما يعتقده، كي لا يتعرض للانتقاد أو السخرية، فيُساير ما يتم تداوله حتى لو كان

غير مقتنع به، فالجيوش الالكترونية التي يمتلكها المؤثرون في مواقع التواصل، تمارس هي الأخرى قمعًا للأصوات المعارضة لا يقل قسوة أحيانا عن قمع السلطات التي يتمردون عليها، إيمانًا منها بأن من يكسب المعركة الإعلامية والنفسية يكسب بسهولة الحرب العسكرية.

ويعد اسقاط الرمزيات، أحد أساليب الفوضى الخلاقة وحروب الجيل الرابع، فلا شيء مقدس أو خارج دائرة الاستهداف، ولابد أن تنقطع صلة المتلقي بكل شيء إلا المؤثرات النفسية الانفعالية، التي تشبه الى حد كبير عمليات غسيل الدماغ التي كان يتعرض لها الأسرى والسجناء، ثم توسعت لتشمل المجتمع، عبر الضخ الاعلامي المكثف و الممنهج، وتداول المحتويات الرقمية الموجهة.

وفي الوقت نفسه فإن تكنلوجيا الاتصال سهّلت تدفق وتداول الأخبار والمعلومات بين الأجيال الشابّة، لدرجة أصبح الشبان في غنى عن النخب الفكرية والأدبية والسياسية.[٣٧] بل إن الشباب تمردوا أيضا على الرمزيات الدينية والعشائرية والقبلية، وحتى على رمزية الأسرة والمعلم والأستاذ الجامعي، في فوضى اجتماعية وسلوكية تحركها منشورات وأخبار ، مفبركة في كثير من الأحيان، أو مبالغ فيها، عبر مواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الاعلام.

كما قامت وسائل الاعلام والاتصال بحرف اتجاهات الرأي العام، لاسيما الشباب منه، عن القضايا الأساسية ذات الطابع القومي، إلى قضايا أخرى محلية في الأعم الأغلب، من خلال تشجيع النفس المحلي والمناطقي والطائفي والعرقي، ومن ثمّ حرف مسارات الصراع باتجاهات أخرى.

وفي السنوات الأخيرة، خاصة في ثورات " الربيع العربي"، أول ما استهدفته حروب الجيل الرابع في العالم، هو النيل من الأمن القومي واستقرار الدول، حيث تفوقت وسائلها في استهداف شرعية الحاكم، مرورًا بالمؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية للدولة، كما شملت النيل من الأحزاب والنقابات، وبث حالة من الشك في مصداقية مؤسسات الثقافة والصحة والرياضة، ما يؤدي في النهاية إلى النيل من المؤسسات الرمزية والدينية ودورها، لكي يسهل التدريج في بث الفتنة والطائفية والشوفينية والصدامات العرقية والمذهبية والفئوية بين الأفراد في المجتمع، وبينهم وبين الدولة، وبالتالي التأليب عليها ونزع الشرعية عنها، فيحدث الشلل والانهيار المطلوبان دون تدخل عسكري مباشر، وهو ما يؤكده الخبير الاستراتيجي الأميركي مانواريج ماكس بقوله ‘‘عدوك سيستيقظ ميتا’’، وأنت لم تطلق رصاصة واحدة.[٣٨]

وفي وقتنا الحاضر, قاد التطور التكنولوجي في البيئة الرقمية الجديدة, إلى تغيير نمط وأساليب تكوين وبلورة وتحريك الرأي العام, ومن ثم السيطرة عليه, من خلال إعادة إنتاج وتوزيع محتوى مكونات الوعي التثاقفي, والذي بات يُنْقَل من الجميع إلى الجميع، دون واسطة أو سيطرة.[٣٩]

مواقع التواصل الاجتماعي التي ساهمت في توفير حرية التعبير للجميع خارج قيود الرقابة، قامت في الوقت نفسه بـ" خداع" الكثيرين، لانهم يعتقدون أنّهم يكتبون آراءهم، لكنهم في الحقيقية يعيدون كتابة أفكار وأخبار فرضت عليهم بشكل غير مباشر، ضمن التوجهات التي وضعها النافذون والفاعلون في مواقع التواصل الاجتماعي. بل إنّ البعض راح يبالغ في تطرفه وتشدده في الشعارات والتوجهات ليتميز عن غيره، ويحقق الشهرة والتفرد. فالاتصال الرقمي اليوم يجعل من الممكن مشاركة المعلومات بشكل لم يسبق له مثيل، فالحدود التقليدية وقيود المسافة لم تعد موجودة ببساطة. ولكن هذا الاتصال نفسه يسهل أيضًا التعامل مع تصور الجمهور للواقع. وأصبح مصطلح "الأخبار المزيفة" شائعًا بشكل متزايد ،ولكنه ليس سوى وجه واحد لمشكلة أكبر بكثير، هي استخدام التكنولوجيا لتغيير الرأي العام ، والتأثير في نهاية المطاف على العالم الحقيقي.(٤٠) فالكثير مما يكتب ويروج له في مواقع التواصل لا يمثل اراءً عفوية تلقائية، نعم قد يكون بعض ما يكتب حولها ذا طابع تلقائي من قبل المدونين العاديين، إنّما هناك جهات فاعلة تحاول إثارة قضايا محددة وتحويلها من خلال التركيز المكثف الى قناعات راسخة لدى المتلقين.

المطلب الثاني: المؤثرات النفسية والعقلية

حروب الجيل الرابع ليس فيها أي سلاح مادي، لكن فيها الكثير من المؤثرات النفسية والعقلية والإعلامية، التي تضمن الوصول للنتائج المطلوبة، ومنها:

أولًا: الحرب النفسية

السلاح الأقوى في الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي هو سلاح الحرب النفسية التي تستخدم فيها كل فنون التلاعب نفسيًا بالمواطنين، ويمكن تعريف التلاعب النفسي على أنّه ممارسة للتأثير غير الضروري من خلال التشويه الذهني والاستغلال العاطفي، حيث يتم استخدام شخص لمنفعة شخص آخر، ويتسبب المتلاعب عمدًا في اختلال توازن القوة ، ويستغل الضحية لخدمة أجندته. (٤١)

وهو يركز على التأثير في مزاج الرأي العام، وتحريك المجاميع الارهابية، أو الشارع الغاضب، وبشكل غير ظاهري أو مرئي، لإرباك الاوضاع العامة في البلد المستهدف، وعلى طريقة " الفوضى الخلاقة" التي طرحتها وزيرة الخارجية الامريكية السابقة كوندليزا رايس مطلع عام ٢٠٠٥، بعد احداث ١١ ايلول/ سبتمبر، واحتلال العراق وافغانستان، ومن ثم استثمار نتائج الثورات الشعبية، أو الحروب الداخلية لصالحها.

وتقوم هذه الحرب على الدعاية والدعاية المضادة، وتتبنى استراتيجية التأثير لتغيير السلوك ونمط التفكير دون أن تعلن عن نفسها ودون أن يكون لها عنوان واضح مرئي أو تأثير مكشوف جلي، غايتها إجهاد العدو وتفكيك عناصر وحدته بتغييرات نفسية يمكن أن تمتد على مدى متوسط أو مدى بعيد، قد يكون أسابيع وشهورا أو سنوات، تقوم أدواتها على عناصر جديدة غير القوة العسكرية لكي تجنبه أهوال التدخل المباشر والروح العدائية التي تقابل بها قواته الغازية. وأبرز أسلوب معتمد في حروب الجيل الرابع، هو استخدام نظرية

الكاوس الفوضوية في الفيزياء الحديثة، قوامها تكسير النظام بالفوضى وخلق نظام جديد يخرج من رحم تلك الفوضى.[٤٢] الفوضى في كل شيء، في السلوك والشعار والممارسة، وأحيانا يتم التركيز على شخصيات أو فئات معينة واعطائها رمزية مصطنعة، وصولا بها الى رفع مستوى الفوضى المجتمعية والسلوكية إلى مستويات تقرب من الهستريا، وهي النقطة التي يمكن دفع الفرد لا شعوريا لارتكاب أفعال ما كان ليقوم بها في حالة الهدوء والاستقرار النفسي.

ثانياً: غسيل الدماغ:

يعتبر غسيل الدماغ أحد أبرز أساليب الحرب النفسية، وكانت بدايته من الحرب الكورية في خمسينيات القرن الماضي، وكان يستخدم في البداية ضد أسرى الحرب، وضد السجناء أيضًا، لكن مع دخول العالم لحروب الجيل الرابع، وتكثيف العمل بالأسلحة النفسية ذات الكلفة الصفرية، فقد بات غسيل الدماغ يمارس ضد المجتمعات في النطاق العام، باستخدام وسائل الاعلام والدعاية ومواقع التواصل الاجتماعي. ويهدف غسيل الدماغ إلى تحقيق تغيير سلوكي، لكن السلوك يعد أمرًا ثانويًا، إذ إنّ هدفهم الرئيس تغيير أفكار الضحية لتناسب مذهبهم الفكري المفضل.[٤٣]

كما يوصف غسيل الدماغ بعبارات سلبية بالكامل، على أنّه نوع من " الاغتصاب العقلي"، إنّه يفرض على الضحية من قبل عدو يهدف إلى تدمير ايمان الضحية بمعتقداته السابقة، ومسح لوح الذاكرة مسحًا كاملًا، حتى يمكن تبني معتقدات جديدة.[٤٤]

لاتزال وسائل الاعلام تستخدم مصطلح غسيل الدماغ في بعض المواقف، كالتقارير عن الطوائف الدينية، لاقتراح وجود نشاط مثير مرضٍ شرير خفي، لكن معظم علماء النفس ربما سيقولون إنّ غسيل الدماغ ليس تفسيرًا بحد ذاته، أي أنّه لا توجد آلية سحرية محددة تسمّى غسيل الدماغ، وبدل من ذلك فالمصطلح تجميع مختصر لمجموعة من الآليات النفسية الاجتماعية المحددة، قد تكون بعضها أو جميعها فاعلة في تطبيق (التلاعب بالعقل)، للتأثير في شخص أو أشخاص.[٤٥]

يقول وليم سارجنت حول اكتشافات بافلوف في مجال غسيل الدماغ"إنّ تطبيق اكتشافات بافلوف في الكلاب على آلية أنواع عديدة من التحول الديني او السياسي في الكائنات البشرية توحي أنّه لكي يكون التحويل مؤثِّرًا يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يَصِل إلى درجة شاذَّة من درجات الغضب أو الخوف أو النشوة، فإذا أمكن الاحتفاظ بهذه الحالة أو أمكن زيادة حدَّتها بوسيلة أو بأخرى، فقد ينتهي الأمر بالشخص إلى حالة من حالات الهستيريا، وحينئذٍ يصبح الإنسان أكثر استعدادًا لتلقِّي الإيحاءات التي قد لا يتقبَّلها في الظروف العاديَّة، وقد يحدُث بديلاً عن ذلك مرحلة من المراحل" :المتعادلة "أو" المتناقضة "أو "شديدة التناقض"، أو قد يَحدث" انهيار امتناعي كامل "يقضي على كلِّ المعتقدات السابقة.[٤٦]

تغيير المعتقدات والثقافات الاجتماعية في الدول هو جزء من العولمة الثقافية التي تهدف إلى الغاء الخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب، لاسيما دول العالم الثالث، وفي مقدمتها الدول العربية والإسلامية، ومن ثم فرض قيم واخلاقيات وثقافة الأقوياء، ولأنّ العالم احادي القطبية حتى الآن، وأمريكا هي المتفردة بقيادة العالم بحكم الواقع، فإنّ المطلوب تعميم الثقافة الامريكية، واجبار الدول الأخرى على السير بهذا الاتجاه باختيارها، أو بالإجبار، وسلاح الاجبار هنا هو زرع الفوضى والصراعات الداخلية، والاقتتال الطائفي والعرقي، لإفشال الدولة، ومن ثم السيطرة عليها، خاصة إذا كانت تلك الدولة تمتلك قدرات مادية وبشرية وغير سائرة في الركب الامريكي. وبات سلاح حقوق الإنسان والاقليات وغيرها تستخدم أحيانا بشكل تعسفي على دول بعينها، فيما يغضّ الطرف عن انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان وعمليات قتل وتعذيب في دول اخرى إذا كانت من حلفاء الولايات المتحدة.

وفي الغالب تستخدم وسائل الاعلام ومواقع التواصل المختلفة في الضغط على الدول المستهدفة، إلى جانب الضغوطات المالية والاقتصادية والسياسية، ولذلك تصر الولايات المتحدة على احتكار الهيمنة على وسائل الاعلام الكبرى، ومواقع التواصل الاجتماعي لضمان الوصول لما تطمح إليه. ومن بين وسائل الضغط استخدام حروب الجيل الرابع والفوضى الخلاقة كسلاح فعال.

إنّ الكشف عن سرقة بيانات الملايين من مستخدمي الفيسبوك بين مدة وأخرى، وحذف حسابات معينة منهما بقرارات حكومية، والاتهامات الأمريكية لروسيا بالتلاعب بنتائج انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠١٦ عبر حسابات الكترونية وهمية، والحديث عن ملاحقات تقوم مخابرات أنظمة شمولية ودكتاتوريات غير معلنة لمعارضين أو ناشطين خارج سيطرتها، وفرض دول ديمقراطية معروفة عالميًا رقابة لصيقة على ما يكتبه مواطنوها في مواقع التواصل الاجتماعي، وقيام شبكات التواصل العالمية الرئيسة مثل فيسبوك وتويتر بغلق حساب من يتناول بالنقد مسميات محددة كإسرائيل او يمتدح خصومها، يكشف الدور الذي يقوم به الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي في التأثير على الرأي العام ومواقفه وقراراته، رغم أنّه يتناقض تمامًا ومفهوم حرية التعبير في مواقع التواصل، كما يتم تسويقه لنا في دول الشرق والدول العربية، ويؤكد إدارتها بأسلوب يراد منه توجيه الرأي العام نحو اهداف محددة غير عشوائية.

كما أنّ القلق الامريكي الشديد والرسمي من مواقع وتطبيقات صينية على الشبكة العنكبوتية دليل آخر أنّ أمريكا تحتكر هذه الوسائل لفرض العولمة الثقافية والإعلامية والسياسية والفكرية والمجتمعية، ولا تريد لزمام صناعة وتوجيه الرأي العام حول العالم عبر وسائل الاتصال والتواصل أن يفلت من يدها.

الخاتمة:

يتضح مما تقدّم، أنّ الدول الكبرى والمؤثرة، تستخدم وبشكل مكثف، أساليب الحرب الصفرية، أي حروب الجيل الرابع، بدل الحروب العسكرية التقليدية، لتحقيق أهدافها في دول العالم الأخرى، التي يتطلب الحفاظ على مصالحها فيها، أو تحقيق خططها هناك، عبر إحداث تغيير داخلي من دون تدخل مباشر أو معلن، وهذه الحروب سلاحها الجماهير والراي العام، ومحركها الاعلام والمؤثرات النفسية والدعائية، وجميع نتائجها تصب في صالح القوى المحركة لها، من دون أن تقدم تلك الدول أية خسائر تذكر، ولذلك تسمى هذه الحروب بالصفرية ؛لأنّها دون خسائر مادية أو بشرية من جانب الجهات التي تقف وراءها.

الاستنتاجات

من خلال ما تقدم، يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية:

١- إنّ الرأي العام بات يحظى بأهمية كبيرة جدًا في صنع السياسات العامة واتخاذ القرار.
٢- العالم تجاوز الحروب التقليدية بمراحلها الثلاث، ووصل إلى المرحلة أو الجيل الرابع من الحروب.
٣- أصبح الرأي العام أحد الأسلحة الفعّالة في حروب الجيل الرابع التي تجري حاليًا.
٤- تعد حروب الجيل الرابع صفريّة بالنسبة إلى مطلقيها ؛لأنّهم لا يقدّمون أية خسائر مادية أو بشرية.
٥- حروب الجيل الرابع عبارة عن حروب داخل الدول لأسباب سياسية أو خدمية أو عرقية أو طائفية.
٦- تقوم حروب الجيل الرابع على تحريك الجماهير أو الرأي العام بطرق وأساليب مختلفة لإثارة القلق والاضطراب داخل الدول وصولًا بها إلى مرحلة الدولة الفاشلة، ومن ثم إعادة ترتيب الأوضاع فيها وفق رؤية القوى المحركة للاحتجاجات أو الداعمة لها.
٧- الاعلام هو المحرّك الأساس للفوضى الخلاقة كما تسمّيها الولايات المتحدة الامريكية، ومن خلاله تستخدم المثيرات النفسية والاجتماعية والسلوكية.
٨- يتم استخدام طرق متطورة ومعقدة من الحرب النفسية والدعاية لإثارة الرأي العام.
٩- في بعض الاحتجاجات الجماهيرية يتم العمل على تهييج الجماهير لإيصالها إلى اقصى عنف ممكن بما يشبه غسيل الدماغ لخلق الفوضى وعدم الاستقرار.
١٠- ظهور مواقع التواصل الاجتماعي أعطى دفعة قوية لحرية الحصول على المعلومة، والتعبير عن الرأي، والتفاعل مع الشأن العام.
١١- التواصل الاجتماعي قلب معادلة المعلومة والفعل فجعلها من الأسفل إلى الأعلى، بعد أن كانت من الأعلى إلى الأسفل.

١٢- ما يميّز مواقع التواصل خروجها عن السيطرة أو الرقابة، وسهولة استخدامها، وكثرة الخيارات فيها، ما جعلها تلعب دورًا مهمًا في الثورات والاحتجاجات الشعبية، خاصة في الدول العربية.

١٣- تعد وسائل الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي حاليًا من أبرز المحركات للشارع والرأي العام، ما جعلها بالتالي السلاح الأبرز في حروب الجيل الرابع.

١٤- رغم الفوائد الجمة لمواقع التواصل الاجتماعي في تنمية الوعي وزيادة ثقافة المواطن بالشأن العام، لكنها استغلت من بعض الجهات المتنفذة والمتمرسة في أساليب الدعاية والحرب النفسية، وحولت مسار بعض الاحتجاجات لصالحها على حساب مطالب الشعوب المشروعة.

١٥- بعض ما يكتب في مواقع التواصل الاجتماعي هو في حقيقته إعادة إرسال لمعلومات موجهة من القوى النافذة في العالم الافتراضي رغم أنّ الكاتب يعتقد أنّه يمارس حريته في التعبير عن الرأي.

١٦- تستخدم القوى الكبرى المحركة للفوضى الخلاقة أساليب متنوعة لكسب الرأي العام منها الخداع وصرف الانظار وخلق الأزمات وحلها واطلاق الشعارات الوردية ودغدغة الآم المواطنين ومعاناتهم، والاستمالة العاطفية وغيرها.

١٧- هدف القوى الكبرى من دعم أو تبني الثورات الشعبية المطلبية – بحسب المفكرين الامريكيين – ليس حل مشاكل الشعوب وتحقيق الرفاه لها، إنّما إعادة صياغة العالم وفق قوانين العولمة من المنظور الامريكي في عالم أحادي القطبية.

المصادر والمراجع:

(١) عبد الرزاق الدليمي، الدعاية والشائعات والرأي العام رؤية معاصرة، دار اليازوري، عمان، ط٢، ٢٠١٥، ص١٩٦.

(٢) زهير عبد اللطيف، الرأي العام وطرق قياسه، مطبعة اليازوري، عمان ، الاردن، ٢٠١٤، ص٣٢.

(٣) مختار تهامي وعاطف عدلي العبد، الراي العام، مركز بحوث الرأي العام، كلية الاعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥، ص١٩.

(4) Walter J. Shepard, Public Opinion, American Journal of Sociology, Vol. 15, No. 1 (Jul., 1909), pp. 42, The University of Chicago Press

(٥) زهير عبد اللطيف، مصدر سابق، ص٢٩.

(٦) – ينظر محمد عبد القادر حاتم، الراي العام وتأثره بالإعلام والدعاية، مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٧٥. وأسماء الجيوشي، الرأي العام ووسائل الاعلام، دار الكتاب الجامعي، دولة الامارات العربية، ٢٠١٧. وكامل خورشيد مراد، مدخل الى الراي العام، دار المسيرة، عمان، الاردن، ٢٠١١.

(٧) – اياد هلال الدليمي، تكنلوجيا الاتصال والعولمة الاعلامية وتأثيراتهما في تشكيل الراي العام العربي، دار العلوم العربية، بيروت، ٢٠١٦، ص٨٥.

(8) – www.publicmediaagency.org/resources.html

(٩) – اياد هلال الدليمي، مصدر سابق، ص١٠٩.

(10) – RA family, 10 Strategies of Manipulation by Noam Chomsky, May 2, 2020, https://adailyreminder.com/

(11) –ibid.

(١٢)– محمد ابو النواعير، الرأي العام بين التضليل والتغيير، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية الاقتصادية والسياسية، ٨ كانون الثاني، ٢٠١٩، https://democraticac.de/

(١٣) – خالد عبد السلام، الغرب الاستعماري... تلاعب بالعقول واستثمار في مآسي الشعوب، (بحث غير منشور)

(١٤) – منال هلال المزاهرة، نظريات الاتصال، دار المسيرة، عمان، ٢٠١٢، ص٦٥.

(15)– RA family, 10 Strategies of Manipulation by Noam Chomsky, May 2, 2020, https://adailyreminder.com/

(١٦) – الاء السوسي، التلفزيون والسوشيال ميديا.. احتكار الكلام أم شيوعيته، الموقع، ٢٢ ايلول ٢٠١٩، http://www.almawqi.com/

(17) – Chomsky, Noam, Media control: the spectacular achievements of propaganda, Seven Stories Press First Edition, new york, 1997,p7.

١٨ – نعوم تشومسكي، من يمتلك العالم، ترجمة اسعد الحسين، دار نينوى للدراسات، دمشق، ٢٠١٤، ص٥٧.

١٩ – المصدر نفسه، ص٥٧.

(٢٠) — المصدر نفسه، ص٥٧.

(٢١) – الاء السوسي، مصدر سابق. http://www.almawqi.com/

(٢٢) – ناصر الهزاني، شبكات التواصل الاجتماعي وصناعة الرأي العام، موقع العربية، https://www.alarabiya.net/

(٢٣) – الاء السوسي، مصدر سابق.

(٢٤) ناصر الهزاني، مصدر سابق.

(٢٥) – أسامة غازي المدني، دور شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الرأي العام لدى طلبة الجامعات السعودية" جامعة أم القرى نموذج"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ٢٠١٥، ص٤٠٢.

(٢٦) – نفس المصدر، ص٤٠٤.

(27) – Antulio J. Echevarria II, FOURTH-GENERATION WAR AND OTHER MYTHS, November 2005, www.researchgate.net

(28) – Greg Simons, Fourth Generation Warfare and The Clash of Civilizations, Journal of Islamic Studies · October 2010, https://academic.oup.com/jis

(٢٩) – نبيل فاروق، انت جيش عدوك حروب الجيل الرابع، دار نهضة مصر، ٢٠١٦، ص٢٠-٢١.

(٣٠) – المصدر السابق، ص ٢١.

(31) – فالح المقدادي، ماذا تعرف عن التكلفة الصفرية في الحرب، صحيفة الزمان، ١٢ حزيران ٢٠١٨، www.azzaman.com

(٣٢)– حسن مصدق، حروب الجيل الرابع تبدأ من المواجهة الإعلامية، موقع العرب www.alarab.co.uk ، ١٢/٠٢/٢٠٢٠

(٣٣) – فالح المقدادي، مصدر سابق.

(34)– Antulio J. Echevarria II, ibid.

(35) – RA family, ibid.

(٣٦) – شيماء شعبان، "حروب الجيل الرابع" معركة السيطرة على العقول والخداع النفسي، بوابة الاهرام، ١١-٣-٢٠١٩، http://gate.ahram.org.eg/News/2129408.aspx

(٣٧) – اياد هلال الدليمي، مصدر سابق، ص٢١٢.

(٣٨) – حسن مصدق، مصدر سابق.

١٢/٠٢/٢٠٢٠

(٣٩) – محمد ابو النواعير، مصدر سابق.

(40) – Robert McArdle, Modern Mind Control: Public Opinion Manipulation in Our Online World, , January 16, 2018, www.usenix.org

(41) – Marina Kovacevic, Noam Chomsky – "10 strategies of manipulation" by the media, www.academia.edu

(٤٢) – حسن مصدق، مصدر سابق.

(٤٣) – كاثلين تيلر، غسيل الدماغ علم التحكم بالتفكير، ترجمة سامر الايوبي وعبد القادر مصطفى، العبيكان للتعليم، الرياض، ٢٠١٥، ص١٣٨.

–(٤٤)– المصدر نفسه، ص١٥.

(٤٥) – المصدر نفسه ،ص١٣٥.

(٤٦) – عمر هارون الخليفة، علم النفس والمخابرات، ديبونو للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠، ص٩٥.